أخلاقيات التواصل الإنساني والإنمائي في تجلِّيات الحضارة الإسلامية الغالبة

ناصر يوسف*

محمد بلغيث**

مقدمة:

ليس في إمكان أي حضارة غالبة أن تحافظ على وتيرتها، إنْ لم تحافظ في الوقت نفسه على الإرث الإنساني والإنمائي للحضارات المغلوبة. فكلما كانت الحضارة الغالبة قائمة على مبدأ احترام مكتسبات الآخر، كانت الحضارة المغلوبة أكثر انقياداً لآلياتها المعرفية والفلسفية والفكرية؛ وحتى الدينية منها، لا سيما إذا ما وفَّرت الحضارة القائدة ما تنشده الحضارات التابعة من رقيٍّ اقتصادي وسياسي ومعرفي وفكري، وديني أيضاً. وفي ظلِّ هذا الوضع الإنساني الذي يقابل الاحترام بالاحترام "كان من الطبيعي أن رعايا الدولة البيزنطية في مصر وغيرها، هم الذين رحَّبوا بالعرب فاتحين، ومن أجل هذا استقبلوا بالرضا والحماسة هؤلاء الفاتحين الذين وعدوهم بالتسامح الديني، كما أظهروا رغبتهم في تسوية مركزهم الديني."[١]

إن تطوُّر الحضارة المنفتحة على مكتسبات الآخر المغلوب، يواكبها تطوُّر فكري، نتيجةَ تفاعل الحضارة الغالبة مع الحضارة المغلوبة. وبنظرةٍ متفحِّصةٍ للماضي، نلفي نموَّ الحركات الفكرية والعلمية متزامناً مع الفتوحات الإسلامية، التي ساعدت العرب وغير

* دكتوراه في اقتصاد التنمية المقارن- باحث جزائري- مركز البحوث- الجامعة الإسلامية العالمية- ماليزيا. البريد الإلكتروني: youcef.nasser@gmail.com

** دكتوراه في الدراسات العربية والحضارة الإسلامية- الجامعة الوطنية الماليزية- ماليزيا. البريد الإلكتروني: silman54@yahoo.com

[١] أحمد، نريمان عبد الكريم. **معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، ص٨٣.

العرب، على الانفتاح على غيرهم من الأمم. وقد انطلقت الحضارة الإسلامية من أن الحوار بين الحضارتين الغالبة والمغلوبة، يؤسِّس لانبعاث فكرٍ حضاري متميِّز عن كل ما تبسطه كل حضارة على حدة، وقد كانت الثقافة المنتجة بقيمها وأخلاقياتها هي المقياس الذي يقيس نوعية الحضارات، كما ظلَّت النظرة الإنسانية للإنسان أهمَّ ما يميِّز كل حضارة عن غيرها. وقد فطن الفاتحون لهذا الأمر؛ إذْ قام شعارهم العملي على الحفاظ على ثقافة هذه الحضارات؛ فاحترام الثقافة من احترام الإنسان، واحترام الإنسان هو منفذ استراتيجي لتقبُّل هذا الإنسان لمبسوطات الآخر المختلف.

لقد شكَّل هذا التواصل الإنساني والإنمائي بين الحضارت، أهمَّ أسرار حفاظ الحضارات القائدة على تميُّزها وتفرُّدها؛ إذْ أدركت الحضارة الإسلامية قيمة فعل التواصل الإنساني والإنمائي مبكِّراً؛ ما أسهم ذلك في بقائها واستمراريتها، إلى أن فقدت بريق بؤبؤيها الإنساني والإنمائي، فأُصيبت بالعمى الفكري والمعرفي.

أولاً: حول مفهوم التواصل الإنساني والإنمائي

لقد تعدَّدت المفاهيم حول التواصل، وتباينت بتباين إيديولوجيات أصحابها، لا سيما أن من اشتغلوا على مصطلح التواصل، يعيشون في كنف الحضارة الغربية الغالبة، ويقلقهم الثقب الأسود الآخذ بالاتساع في حضارتهم. فهم يعكفون على إيجاد حلول فلسفية للآلة العلمية، التي أفرزت هذا التطور التكنولوجي، ويكاد يكون -في نظرهم- سبباً في سقوط الحضارة إنسانياً وأخلاقياً. وسواء ترجم هذا القلق إلى واقع أم لا؛ فإن ذلك لا يعنينا. ما يشغلنا هو ما معنى "إنسانياً" و"أخلاقياً"؟ هل انهار الإنسان إنسانياً عندما تطوَّر تكنولوجياً، أم انهار لما غاب عن الوعي إيديولوجياً وتعدَّدت أدواؤه الفلسفية؟ هل انهارت الأخلاق في ظلِّ طغيان آلة التكنولوجيا، أم انهارت لما سلكت هذه الحضارة مسلكاً لا إنسانياً؟

لا شكَّ في أن الإنسان ينهار في اللحظة التي يخالف فيها فطرته، وتتميَّع الأخلاق عندما تلبس لبوساً غير إنساني. وعليه فلا ينبغي أن يتَّخذ فلاسفة الغرب من سقوط

الإنسان والأخلاق ذريعة لتواصل الإنسان مع الأخلاق داخل الحضارة الغربية المتَّهمة -هي الأخرى- بالسقوط، وهو تواصل لا يعدو أن يكون تواصلاً محلِّياً؛ فما الفائدة من إحداث تواصل بين قيم فقدت صلاحيتها وأهميتها في المجتمع الدولي؟ نعتقد أنه على فلاسفة التواصل إعادة النظر في منظومة التواصل الإيديولوجية، التي تضيق بضيق إنسان الحضارة الغربية وأخلاقها، واجتهاد جهدهم للتواصل مع إنسان وأخلاق لا يزالان يحتفظان بقدرتهما على الأخد والعطاء؛ ولكن في حضارة أخرى غير الحضارة الحالية، أو الاستفادة من الحضارات البشرية الأخرى، التي اكتسب فيها التواصل أهمية إنسانية وأخلاقية وإنمائية؛ ولِمَ لا، وهذه الحضارات الإنسانية حضارة إقناع، وليست حضارة قناع؟

عموماً، مفهوم التواصل مفهوم فضفاض، أفرزته الرؤية الإيديولوجية للحضارة، وهي رؤية سجينة الهم التنظيري للقضايا الإنسانية والأخلاقية داخل حضارة أنانية في إنسانيتها ومتميِّعة في أخلاقها؛ بينما تغاضت هذه الرؤية عن القيم التطبيقية الفاعلة في إنضاج ثمرة التواصل الإنساني والأخلاقي والإنمائي، وهي قيم فرضت نفسها في الحضارة الإسلامية الغالبة؛ لكن من يلقي السمع، بينما "لم يُسأ فهم أي جزء من العالم، بشكل عنيد ومنظم وميئوس منه، كما أسيء فهم ذلك التركيب الجغرافي والديني والثقافي الذي يعرف باسم الإسلام."[٢] وعليه فإنه يتعذَّر على الحضارات والأمم تحصيل الفهم فيما بينها تحصيلاً واعياً، وبشكل تتَّفق عليه الأطراف التي تنشد التواصل الإنمائي والإنساني، إن لم تراع آليات هذا التواصل وشروطه ومقاصده وأخلاقاته.

١. آليات التواصل الإنساني والإنمائي:

في ظلِّ التواصل تتداخل الثقافات والمستويات، وتتعايش فيما بينها؛ فلا وجود لحواجز مادية خالصة، ما دامت الأمور تتمُّ في إطار حوافز إنسانية أصيلة. إن الحضور

[٢] سميث، هوستن. **أديان العالم: دراسة روحية تحليلية معمَّقة لأديان العالم الكبرى توضِّح فلسفة تعاليمها وجواهر حكمتها**، تعريب وتقديم وحواشي: سعد رستم، حلب: دار الجسور الثقافية، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٧٤.

الثقافي من غير تمايز، يشكِّل أحد أهم شروط نجاح التواصل الإنساني والإنمائي. أيضاً، تسهم اللغة الموحَّدة على مستوى التفاهم مع الآخر، في تعزيز مسيرة التواصل؛ لأن التواصل قد يفقد كل معنى إنْ لم تحكمه أنساق لغة موحَّدة، تكون أكثر وضوحاً؛ إذ يعني مطلب الوضوح "تبسيط الأشياء، وفهم جمهور واسع من الناس."[٣] وهل هناك أوضح من لغة إنسانية مشتركة، هي نفسها لغة التواصل؟

تتميَّز لغة التواصل بأنها أحادية في مقصدها الإنساني، وإنْ تعدَّدت هوية الإنسان الإنمائية؛ فإذا ذاب التعدُّد في الوحدة وتلاشى، سيفرز وحدة في التفاهم حول الأمور التي تتعلَّق بمصير الإنسان والتنمية، "وهنا تتجلى أهمية التواصل لكونه يضطلع بتمتين الروابط بين أفراد الجماعة، وتنشيط العلاقات بين البشر؛ ولعل اللغة توصف من أبرز العوامل التنظيمية في هذه المجتمعات، ولذلك عدت الوظيفة التواصلية لدى بعض علماء اللسان من أهم وظائف اللغة التي تحكمها برمجة ذهنية عجيبة لا نخالها إلا هبة ربانية تندرج في حكمة تعليم آدم عليه السلام الأسماء كلها."[٤] وعليه يتعذَّر ترجمة التفاهم إلى أخلاق، إذا حدث فصل تعسُّفي بين اللغة والثقافة؛ لأن مثل هذا الفصل سينجم عنه اغتراب داخل الذوات التي تنشد التواصل. ففهم الآخر يشترط فهم الذات واحترام الذوات الأخرى؛ أما الفهم المشترك والاحترام المتبادل؛ فيستولدان فهماً متبادلاً، هو نفسه التواصل. فما الفائدة في أن تتخاطب الذوات بلغة واحدة، تكون عبْر جسر الترجمة أو معرفة الذات بلغة الآخر؛ بينما ترفض هذه الذات الاعتراف بثقافة الآخر، وتتأفَّف منها؟ هناك اختلاف جلي بين الاتصال والتواصل، فإذا كان الاتصال يستهدف تحقيق المنافع الإنمائية وجلب المصالح غير الإنسانية (=الاتصال الذي يَجْمَعُ بين المستعمِر، والمستعمَر؛ بينما هما ضدان)؛ فإن التواصل يتوخَّى تعزيز المصالح الإنسانية واستثمار المنافع الإنمائية (=التواصل الذي يُجْمِعُ على أن الإنسان والإنماء توأمان). إن مسلك الاتصال هو مسلك غير إنساني وإنْ بدا إنمائياً، فهو مغرم بالتجمُّع

[٣] ناصف، مصطفى. **اللغة والتفسير والتواصل**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٥م، (عالم المعرفة: ١٩٣)، ص٣٥.

[٤] يوسف، أحمد. **سيميائيات التواصل وفعالية الحوار: المفاهيم والآليات**، وهران: منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب بجامعة وهران، ص٥٤.

الذي عاقبته التفكيك؛ بينما طريق التواصل هو طريق إنساني وإنمائي، ينشد الإجماع، وغالباً ما تكون غايته التركيب.

إن القاسم المشترك بين الاتصال والتواصل هو التنمية وليس الإنسان. فكلما كانت التنمية ناقصة ومشوَّهة، تعمَّدت استبعاد الإنسان من دائرتها النفعية. إن رسالة التواصل رسالة إنسانية، وتوصيلها للآخر يعدُّ مهمَّة عسيرة، قد ينجم عنها مشقة للذات في فهم الآخر، وحصول معاناة في إبلاغه رسالة الاطمئنان والاقتراب، لا سيما إذا كان هذا الآخر يتوجَّس خيفة من محتوى هذه الرسالة، ويصرُّ على أن الرسالة تُخبِرُ بالخوف، وتُنذِر بالترقُّب؛ لكن كلما نضجت وظيفة التواصل الإنساني، أثمرت مؤسَّسة التواصل الإنمائي، وذبلت حقول الاتصال الحيواني. فعندما "لا يشترك الناس الذين يتحاورون نفس الثقافة ونفس المعرفة ونفس القيم ونفس المسلَّمات، فإن الفهم المتبادل يكون صعباً. إن هذا الفهم يكون ممكناً من خلال التفاوض بشأن المعنى. ولكي تتفاوض مع أحدهم بشأن المعنى عليك أن تعي الاختلافات في الخلفيات وتحترمها، وتعلم متى تكون تلك الاختلافات مهمة. وتحتاج إلى ما يكفي من التنوع الثقافي والتجربة الشخصية كي تعي بوجود رؤى مختلفة للعالم، وتعرف ما هي طبيعتها المختلفة. تحتاج كذلك إلى الصبر، وإلى نوع من المرونة في رؤيتك للعالم، وتفهُّم للأخطاء، وموهبة في إيجاد الاستعارة المناسبة لكي توصِل الأجزاء الواردة في التجارب غير المشتركة."[٥]

تتَّخذ الأشياء وضعاً معكوساً كلما تعلَّق الأمر بالتواصل مع الآخر المختلف؛ إذ تسبق معرفة ثقافة الآخر بلغة الذات، تحصيل المعرفة بلغة الآخر، وذلك لأن الشعوب -غير المستعمَرة- أول ما تهتمُّ به، هو تعلُّم لغاتها، التي عن طريقها -وبوسائط أخرى مثل الترجمة- تستكشف ثقافة الآخرين. إن طبيعة مراحل التعليم لا تسمح بتعدُّد اللغات لسانياً في فترة وجيزة، نظراً لما يفرضه ذلك من مشقَّة على المتعلِّم؛ بينما يكون

[٥] لايكوف، جورج وجونسون، مارك. **الاستعارات التي نحيا بها**، ترجمة: عبد المجيد جحفة، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٩٦م، ص٢١٦.

من السهل حصول تعدُّد في الثقافات، التي يوفرها الإعلام المعولَم، وتتيحها الكتابات المترجمة.

تأسيساً على ما سبق، فإن التواصل الإنساني والإنمائي يخضع لآليتين هما:

أ. الثقافة: إن أول ما يتعلَّمه الإنسان حول الآخر، هو الإلمام بثقافة الآخر قبل إتقان لغة هذه الثقافة؛ لأن ثقافة الآخر يتمُّ استيعاب فحواها عن طريق لغة الذات، وذلك لمن أراد أن يتطلَّع إلى فهم مسالك هذه الثقافة لدى الآخر. إن معرفة ثقافة الآخر لا تشترط كلِّياً معرفة لغة هذه الثقافة؛ إذ كم من عربي لا يعرف اللغات الأوربية، ولكن على إلمام متواضع بثقافة هذه اللغات. إن التواصل الثقافي أمر ممكن في حالة حصول تقارب إنساني وإنمائي، قد تسهم العولمة في تضييق فجوته. لا شكَّ أن البعد الإنمائي للثقافة يغري الإنسان على تحقيق المزيد من التواصل. وعليه لماذا لا يوجد تواصل ناضج بين الأمم الغالبة، والأمم المغلوبة؟

يظهر حاجز التواصل نتيجة الفراغ الإنمائي، الذي يجمع بين ثقافات هذه الأمم؛ لأن التواصل يشترط حصول عامل الإفادة من ثقافة الآخر. ومن ثمَّ فإن لغة الإنماء، هي الآلية الأولى التي تتواصل عن طريقها الثقافات، وإن جهل أصحابها لغة الإنسان الذي يُتواصل معه، كما يتواصل الغرب مع اليابان والصين؛ فما يهم الغرب من اليابان والصين، هو الجانب الإنمائي وليس الإنساني. وبناء على ذلك فإنه إلى جانب المصلحة المعرفية، "يذهب هابرْماس إلى أن المصلحة العملية تفضي إلى نوع ثالث من المصلحة، وهي مصلحة الانعتاق والتحرر، وهذه المصلحة مرتبطة أيضاً باللغة لتخليص التفاعل والتواصل من العناصر التي تشوِّهها."[٦]

ب. اللغة: لا شكَّ أن معرفة لغة الآخر، تشكِّل أفضل آلية لتنمية التواصل والاستفادة من عوائده؛ إذ يفهم يورغن هبرماس (J. Habermas) التواصل بأنه كل ما يؤسِّس للإجماع عن طريق العقل، وأن هناك ثلاثة جذور لفعل التواصل: المعبِّرة أو

---

[٦] كريب، أيان. **النظرية الاجتماعية: من بارسونز إلى هابرماس**، ترجمة: محمد حسين غلوم، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٩م، (عالم المعرفة: ٢٤٤)، ص٣٥.

التعبير القصدي والوصفي؛ إقامة علاقة بين الذات والآخر؛ ثم المقترحة.[٧] ففعل التواصل يشترط معرفة الآخر والتماهي معه، وذلك لتفعيل وظيفة الاقتراح التي تتأتّى بعد أن يكون التعبير باللغة وإقامة العلاقة الذواتية، قد نجحا في تذليل سبل التواصل. لا يتحقّق فعل الاقتراح؛ إلاَّ عبر الترجمة والتفسير وإتقان اللغة. لكن إتقان لغة الغير والاعتماد عليها في غياب الثقة بلغة الذات، تجعل الذات سجينة أفكار هذه اللغة وإبداعاتها. وفي هذه الحالة قد تبدع الذات بلغتها ولكن حتماً ستفكِّر بوساطة ثقافة لغة الآخر، فلا تأتي جديداً لذاتها بل ستكرِّر غيرها، وتستقوي بسلطة لغة الإنماء المهيمنة.

وعليه فإن "التكلُّم بلغة أخرى غير اللغة الأم يعني بشكل أو بآخر الاعتراف بسلطة ومنطق ومقاصد نظام القوي الذي تكون هذه اللغة أداته. فاللغة الأمريكية هي لغة الأعمال والتقنية. إنها، شأن كل اللغات، مفهوم للعالم، ونظام دقيق يقتضي طاعته ضمنياً وسُلَّماً للقيم. إن القبول باللغة الإنكليزية القاعدية كلغة عامة للعالم الأوروبي لا يعني فقط اختيار سهولة أدواتية ووسيلة غير أساسية وملائمة للاتصال، بل يعني سيامة أوروبا في خدمة مفهوم تقني-اقتصادي للعالم ولمستقبلها الذاتي. ليس هناك من لغة بريئة أكانت لغتنا أم لغة الآخرين. ولا وجود لوسيط مجاني."[٨] وعليه فإن حصول الترجمة وإتقان اللغة يزيدان من قيمة ثقافة الآخر الإنمائية المسيطرة، وهذا ماثل في الغرب الذي يجتهد لإتقان اللغتين اليابانية والصينية.

إن التواصل مع الآخر بات قناعة لغوية لتفعيل عناصر التفاهم على مستوى المؤسسات الإنسانية والإنمائية، وذلك في ظلِّ الحرص على تكثيف اللقاءات المثمرة، والتحاور مع الآخر وجهاً لوجه، من غير وسائط إعلامية أو إخبارية أو تأويلية؛ إذ يُشترط لاستثمار التواصل اللغوي المثمر، حصول تمييز بين لغة الاتصال التي "تكون

---

7 Habermas, Jurgen. The *Theory of Communicative Action: Lifeworld and System: A Critique of Functionalist Reason*, Translated by Thomas McCarthy, Boston: Beacon Press, 1987, Volume 2, p 62.

٨ دوبريه، ريجيس. **محاضرات في علم الإعلام العام: الميديولوجيا**، ترجمة: فؤاد شاهين وجورجيت الحدَّاد، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٦م، ص٥٤.

نمطاً سرياً لا يفهمه الغرباء،"[٩] ولغة التواصل التي تؤمن بأن "كل فعل تواصلي هو بالضرورة أنموذج لساني له تركيب وسنن وسياق."[١٠] ينبغي أيضاً على اللغة التي تكون وسيطاً في التواصل، أن تعي ما تقول؛ لأن اللغة تتحايل على اللغات الأخرى بقناع الإقناع، وهو قناع يتخفَّى وراء سلطته الإنمائية وليس الإنسانية. فكلما كانت اللغة في مركز قوي، مارست سلطتها اللاإنسانية المتمثلة في الكذب والخداع والتحايل؛ وهي سلطة تمتلك آلية تأويلية لقَناعات المحاور؛ إذ تجعله سجين خطابها، أو تجعله يثق في خطابها، وعليه نعتقد أن اللغة لغتان إنْ لم تكن لغات، فغياب التواصل بين الحضارة الغربية والأمم المغلوبة، يعود إلى الخطاب الغربي الغارق في سواد لغة التأويل؛ بينما التواصل يشترط لغة التفسير والتوضيح، فكلٌّ "شكل ثقافي من الأشكال التي عرفتها الحضارة الغربية، قد كانت له منظومة تأويله وتقنياته ومناهجه وطرقه الخاصة للكشف عن اللغة، التي تريد أن تعني غير ما تقوله، ولتخمين وجود لغة خارج اللغة."[١١]

٢. شروط التواصل الإنساني والإنمائي:

هناك شروط يُفترَض أن تتوفر بين من ينشدون تمديد حبل التواصل بينهم وتمتينه؛ إذ الإخلال بهذه المناشدة، قد يفرز قطيعة إنسانية وإنمائية بين من يمسك بطرفي حبل التواصل، ومن هذه الشروط:

أ. فهم الذات واحترامها: يشترط لنقد الذات حصول فهم الذات واحترامها، والحرص على عدم إشغال الذات بما لا يعنيها من محاقر الأمور وسفْسافها. فإقحام الذات في أشياء ليست من اختصاصها، سيفقدها الاحترام، ويبقيها في حلقة استهلاكية مفرغة؛ فإذا لم تجدِّد الذات ذاتها، لا شكَّ أنها ستستهلك ذوات غيرها. إن التزيُّن بذوات الغير لا يجلب الاحترام بله فهم الذات لنفسها؛ ولعلَّ من محاقر الأمور، هو الانشغال بالأشياء التي أسهمت في تنمية الآخر؛ ما قد يغرق الذات في مستنقع التبعية،

[٩] ناصف، مصطفى. **اللغة والتفسير والتواصل**، مرجع سابق، ص٣٩.

[١٠] يوسف، أحمد. **سيميائيات التواصل وفعالية الحوار**، مرجع سابق، ص٥٧.

[١١] فوكو، ميشيل. **جنيالوجيا المعرفة**، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٨م، ص٣٤.

وتصير اللغة بين ذات التنمية، وذات التبعية لغةَ اتصال إنمائي، تفتقر إلى لغة التواصل الإنساني. فمن شروط التواصل أن تفهم كل ذات خصائص أشخاصها وأفكارها وأشيائها؛ وإلا فقدت الثقة في مرجعيتها. إن أهم شيء في فهم الذات واحترامها، هو فهم الاختلاف المبدع لدى الآخر، واحترام رؤيته لله والكون والإنسان، وذلك لتفادي الصدام، أوحصره في دائرة الاحترام المتبادل؛ إذ "لا يمكن إضفاء الطابع الرقمي على الفهم. ثمة فرق بين أن نربي من أجل تحصيل الفهم في الرياضيات أو في مادة تعليمية أخرى، وبين أن نربي من أجل اكتساب الفهم الإنساني."[١٢] ومثل هذا التزاوج في الفهم يرفض الغرب التسليم به، لا سيما فيما يتعلّق بالمناهج الدراسية في العالم الإسلامي. وهناك نماذج إنمائية وإنسانية متعدِّدة، وعلى الذات أن تتميَّز بأنموذجها حتى تحقِّق الاحترام لنفسها. فالتواصل الإنمائي والإنساني الذي يمرَّر عبر قنوات العولمة، يكون لمن يحترم ذاته إنمائياً ويفهم الآخر إنسانياً. فشرط التواصل الأول هو ترصيص الذات إنمائياً بمنظومتها الحضارية؛ إذا يتعذَّر في عالمنا المعاصر حدوث تواصل إنساني مع ذات متخلفة إنمائياً.

ب. فهم الآخر واحترامه: وهذا الشرط مبني على الشرط الأول. فاحترام الذات وفهمها يجلب احترام الآخر وفهمه؛ لأن نقد الذات يعبِّد طريقاً تجاه الاعتراف بالآخر. وعدم التماهي مع الآخر من قِبل الذات، يجعل الذات مرآةً للآخر. فإذا تداخلت الذات في الآخر، فكيف للآخر أن يرى الذات ويفهمها ويحترمها؟ إن الفهم الواعي للذات والآخر، يتطلَّب أن يحترم كلاهما موقعه الإنمائي وموقفه الإنساني. فالتفاعل بين الذات، والآخر، ضرورية للخروج من مأزق الاقتتال مع الآخر، أو الافتتان به، و عليه "يقترح هابرماس نظرية الفاعلية التواصلية، بكل ما تفترض من اتفاق وتواصل وإجماع عقلاني، لمقاومة الاستعمار الداخلي للعالم المعيش الحديث، وذلك لأن الجهاز المفاهيمي الذي تمَّ استثماره لنقد العقلانية الأداتية لم يعد كافياً لفهم تفسير الظواهر المرضية

[١٢] موران، إدغار. **تربية المستقبل: المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل،** ترجمة: عزيز لزرق ومنير الحجوجي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط١، ٢٠٠٢م، ص٨٦.

للمجتمع الصناعي المتقدم."[١٣] إن نزعة التمركز حول الذات تفضي "إلى الكذب على الذات، وبالتالي خداعها، وهذا شيء ناجم عن اللجوء إلى التبرير الذاتي وإلى تزكية الذات، والميل نحو جعل الغير مصدر كل الشرور، سواء كان هذا الغير عبارة عن غريب أو قريب لنا."[١٤] إن تعايش الذات مع الآخر يكون تحت سقف الاحترام لنماذجه الإنسانية والإنمائية. فالاحترام الإنساني لنماذج الآخر الإنمائية يعني أن "التطلع نحو أفضل العوالم، ليس هو على الإطلاق التخلي عن الأمل في عالم أفضل."[١٥]

ت. التوظيف المتبادل للفهم والاحترام: لا بدَّ أن يُشعِر الآخرُ الذاتَ الأخرى، بأن التفاهم والاحترام قد حقَّقا مقصدهما، من خلال توظيفهما في عملية البناء المشترك، بحيث يُترجَم ذلك باتِّخاذ خطوات جريئة وملموسة، تنقشع بداخلها ضبابية الرؤية للحاضر والمستقبل. ويكون التوظيف المتبادل بالالتفاف حول المصالح الإنسانية والمنافع الإنمائية؛ ما أدَّى بهبرماس إلى إدخال "العالم المعيش بوصفه خلفية للنشاط التواصلي، أي أن المشاركين في التواصل، ومن أجل التفاهم حول وضعية خاصة بهم، يرتبطون بتراث ثقافي يستمدون منه بعض العناصر، ولكن بالعمل على تحديدها."[١٦] بحيث يكون تحديد هذه العناصر في إطار المسائل الإنسانية والإنمائية الوضعية المشتركة.

ث. تفعيل الإنجازات واستثمارها داخل هذا التوظيف المتبادل: لا شيء في التفاهم المشترك أهم من عملية التفعيل. فالتفعيل رهن بالتأسيس؛ إذ لا بدَّ من توظيف هذا التفعيل داخل مؤسَّسات إنمائية، تتميَّز بصرامتها، وانضباطها، وقوانينها، وأخلاقياتها، وتصوُّراتها للمستقبل. هذا ما يمكن أن نلمسه في التواصل الذي حدث بين الغرب واليابان بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال مؤسسات إنمائية، ثبت أنها تمتلك المقدرة على معالجة المسائل الكبرى التي تعترض طريقهما.

---

[١٣] أفاية، محمد نور الدين. **الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة: نموذج هابرماس**، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط٢، ١٩٩٨م، ص٢٤٣.

[١٤] موران، إدغار. **تربية المستقبل**، مرجع سابق، ص٩٠.

[١٥] المرجع السابق، ص٨٥.

[١٦] أفاية، محمد نور الدين. **الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة**، مرجع سابق، ص١٨٩.

ج. استقطاب الآخر تجاه هذه الإنجازات بوصفه مستهلكاً ومشاركاً ومستثمراً ومنتجاً: فلا يمكن للآخر أن يمتلك عناصر الثقة في مؤسَّسات التواصل الإنساني والإنمائي، إن لم يشعر بأنه يستفيد من عطاء هذه المؤسَّسات الإنمائية؛ استفادة لا تعدمها مدى حاجة هذا الآخر لغيره. لقد تمكَّنت الولايات المتحدة في حربها الباردة مع الاتحاد السوفياتي، من استقطاب اليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة إلى معسكرها الغربي، بعدما أفلحت في أن تمنح هذه الدول صفة المستهلك والمشارك والمستثمر والمنتج، وقد استفادت هذه الدول إنمائياً بعد نهاية الحرب الباردة، وهي الآن تشكِّل قطباً اقتصادياً، لا يمكن الاستغناء عنه في حلِّ مشاكل العالم الإنمائية.

د. إشعار الآخر بأنه يمتلك المقدرة على أن يكون طرفاً مهمّاً في عملية التواصل الإنمائي: وهذا الإشعار هو إشعار إنساني بالدرجة الأولى؛ لأن الآخر يعجز عن أن يتواصل إنمائياً مع غيره إذا فقد الثقة في نفسه، أو شعر بالمهانة والاستتباع. فالتواصل الإنمائي يشترط فكَّ الارتباط اللامتكافئ بين الذات، والآخر، خاصة على مستوى اللغة. فالولايات المتحدة الأمريكية أبقت على العالم سجيناً للغتها، ومثل هذا ما كان ليتم عبر العلوم وحدها، وإنما ساعد الإعلام بكل وسائطه على انتشار هذه اللغة؛ ما جعل الآخر فاقداً للثقة في نفسه وفي لغته، وعاجزاً عن التحدُّث بها بحرية وطلاقة، والإبداع بوساطتها.

هـ. إعطاء الفرصة للآخر للاعتماد على ذاته: وهذا يشكِّل امتحاناً عسيراً للتحرُّر من الحلقة المفرغة للارتباط اللامتكافئ، ويهيء للآخر سبل المشاركة والمنافسة، وعرض البدائل الإنمائية.

و. ربط التوظيف الإنمائي بالاعتماد المتبادل: وهنا تتجلَّى حقيقة نقد الذات، والسمو بعطاءاتها إلى مرتبة التفعيل والتأسيس والإنجاز والاستمرار، وذلك يتحقَّق بالاعتراف بالآخر المعتمد على ذاته، والإيمان بأن إنجازاته الذاتية تستحقُّ المبادلة والمداولة. وفي إطار ذلك تستمر الذات في تفعيل عناصر المساءلة، وتحقيق المزيد من المواقف المسؤولة تجاه الأخلاق والرسالة والعقيدة.

ز. التفاهم الناضج على ترجمة العمل الإنساني والإنمائي إلى ثمار ناضجة: بحيث لا تؤثِّر القيم المتباينة، مثل: الأخلاق، والرسالة، والعقيدة، في تعطيل آليات التواصل والعمل المشترك. وإذا تمَّ تفادي حصول اصطدام في القيم بفضل التفاهم المسؤول، فلا شكَّ أن مقاصد التواصل تكون قد أثمرت إنسانياً وإنمائياً.

٣. مقاصد التواصل الإنساني والإنمائي:

إن تجسير العلاقة بين الذات والآخر، غالباً ما تستهدف تحقيق مقاصد إنسانية وإنمائية. فمن غير هذا التجسير، يتعذَّر قطف ثمار التواصل. هذا لأن التواصل يشترط حصول مرسِلٍ ومتلقٍ أثناء الحوار، كما يشترط حصول شراكة ذكِّية ومتكافئة على مستوى القول والإصغاء؛ فالتجرُّد من الأنانية الإنمائية بات مطلباً ضرورياً لبناء علاقة إنسانية متكافئة.

يعدُّ إيصال الرسالة الإنمائية وإفادة الآخر منها، أحد أهم انشغالات مقاصد التواصل الإنساني. فإذا لم تُفِد الذات المتواصلة الآخر، فما الفائدة من التواصل الإنمائي؟ بل مثل هذا التواصل الذي لا يعدو كونه اتصالاً مادياً وآلياً، لا يحقِّق المقاصد العليا للتواصل، مثل: التبادل المحترم، والحرية، والمسؤولية؛ لأن "الأنانية ليست صفة متعلقة بالسلوك فحسب، وإنما تتعلق كذلك بالشخصية. فهي تعني أني أريد كل شيء لنفسي، وأنني أجد المتعة في الاقتناء وليس في المشاركة، كما تعني أنني يجب أن أكون جشعاً، لأنه إذا كان هدفي هو التملك فإنني أكون أكبر بقدر ما تزيد ملكيتي، ويجب أن أشعر بأنني خصم للآخرين جميعاً، لزبائني الذين أريد أن أخدعهم، ولمنافسيّ الذين أريد أن أقضي عليهم، ولعمالي الذين أريد أن أستغلهم، وأنني لا يمكن أن أشبع لأنه لا حدَّ لرغباتي، وأنني لا بد من أحسد من يملك أكثر مما أملك، وأخاف ممن يملك أقل... ولكن عليَّ أن أكبت كل هذه المشاعر لكي أقدِّم نفسي (للآخرين كما لنفسي) كشخص مبتسم ودود، مخلص وعقلاني كما يتظاهر الجميع."[١٧] إن إضفاء البعد

[١٧] فروم، إيريك. **الإنسان بين الجوهر والمظهر: نتملَّك أو نكون**، ترجمة: سعد زهران، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٩م، (عالم المعرفة: ١٤٠)، ص٢٤-٢٥.

الإنساني على الفعل الإنمائي، هو الذي يجعل الإنسان يبتسم بصدق، ويعمل بإخلاص، ويتصرَّف برشد.

يشترط تحقيق المقاصد الإنمائية، تجريد المتحاورين من الأنانية الإنمائية، والتركيز على إنضاج المسائل التي تتعلَّق بالتنمية، بهدف تقريب وجهة النظر الإنسانية تجاهها؛ لأن مقاصد التواصل تتوخَّى المساواة لتعميم عناصر الإفادة. فمن غير مساواة في القول والإصغاء، وفي الحرية والمسؤولية، ستعدم فرص تبادل الخبرات والحلول ووجهات النظر السديدة.

وتتجلَّى أهمية الأبعاد الإنسانية للحوار، في أنها تبقي المسائل الإنسانية في إطار إنساني، يبغي تحقيق المزيد من التواصل الإنمائي؛ لأن المحاور هو إنسان، ويُفترَض منه أن يركِّز على قضاياه الإنسانية، التي لا تخضع لمنطق المنفعة المحتكم إلى مبدأ: الخطأ والصواب. فإذا تلاقت القيم الإنسانية تلاشت الأنانية الإنمائية، و"لنا أن نتوقع أن الاختلافات في عملية الفكر ستبدأ هي الأخرى في التلاشي. وثمة شواهد في الحقيقة تدل على حدوث تغيرات في الممارسات الاجتماعية، بل وتغيرات طرأت على الحالات الوقتية للتوجه الاجتماعي، وهو من شأنه أن يغير طريقة الإدراك الحسي والتفكير عند الناس."[١٨] وعليه فإن نبذ الاختلافات التي عادة ما تكون سبباً في تأجيج الصراعات، هي مقصد سامٍ من مقاصد التواصل الإنساني والإنمائي.

إنّ القيم الإنسانية، مثل: الحاجة إلى التواصل، والانفتاح، والحرية، والمسؤولية، وتقبُّل الاختلاف وإيجاد الحلول له، والاحترام المتبادل، والصدق، والنزاهة، تُعبِّدُ طريقاً سهلاً أمام إنجاح مقاصد التواصل الإنساني والإنمائي، وتفعيلها على مستوى المؤسسات الحضارية؛ إذ يشعر الناس في باحة الحوار الناضج بالحرية في إبداء آرائهم، وعرض مقترحاتهم. فالحوار يشكِّل أعلى درجة في النشاط التواصلي، ويعني ذلك أنه لم

---

[١٨] نيسبت، ريتشارد إي. **جغرافية الفكر: كيف يفكّر الغربيون والآسيويون على شكل مختلف.. ولماذا؟** ترجمة: شوقي جلال، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٥م، (عالم المعرفة: ٣١٢)، ص٢٠٥.

تعد هناك حواجر نفسية تمنع من تفعيل التواصل. إن الهدف من الحوار هو تعزيز مقاصد التواصل، وينجم عنه:[١٩] الانخراط في النشاط التواصلي، نظراً للحاجة إلى التواصل. وتعزيز عناصر الانفتاح والحرية والمسؤولية. والتعامل مع القضايا والأفكار ذات الصلة بالتواصل. وتقدير الفروق الفردية. وتقبُّل الاختلاف والصراع، في ظلِّ توفر الرغبة في تقديم حلول مناسبة. والتغذية المرتدة الفاعلة. والاحترام المتبادل، والأمل المفعَم، والثقة. والصدق والنزاهة أثناء التواصل. والموقف الإيجابي تجاه الفهم والتعلُّم. والرغبة في الاعتراف بالخطأ، والإنصات للإقناع.

٤. أخلاقيات التواصل الإنساني والإنمائي:

قد يتعذَّر استثمار مقاصد التواصل الإنساني والإنمائي في غياب قيم وضوابط، تكون حكَماً بين المتحاورين؛ إذ تساعد على إنضاج التواصل وإثماره. فحضور الإخلاص يسهم بفاعلية في الوصول بالتفاعل الإيجابي بين المتحاورين إلى ذروة نشاطه الإنساني والإنمائي؛ لأن الإخلاص لا يشترط حصول الإفادة أثناء الحوار والتواصل فحسب؛ وإنما ينشد حصول توافق إنساني. فمثل هذا التوافق الإنساني يتأتَّى من رؤية المحاور على أنه إنسان له قضاياه واهتماماته وانشغالاته ومعتقداته، شأنه شأن المحاور الآخر؛ مما قد يقلِّل من النظرة السلبية للمحاورين تجاه بعضهم البعض، مثل: الغرور، والتكبُّر، والعُجب، والتعالي، والاحتقار، والإهانة. فرسوخ هذه القناعات السلبية في ذهن المحاورين، أو في ذهن محاور دون غيره، أمكنها أن تكون سبباً في تشويه مقاصد التواصل، نظراً لما قد ينجم عنه من غضب، واستعمال للعنف بالعلامات اللسانية وغير اللسانية. فأخلاق اللاعنف باتت ضرورية لإنجاح التواصل؛ لأن التواصل لا يعترض طريقه عدم الفهم، فذلك مسألة وقت؛ ولكن العنف هو العدو الزمني للتواصل. فإذا "لم يكن لأخلاق اللاعنف أية فعالية مضمونة، فإن دلالتها النموذجية قائمة في عملية

---

[19] Johannesen, Richard L. *Ethics in Human Communication*, Illinois: Waveland Press, Inc, 3rd ed, 1990, p 77.

التحول التي تلقي على عاتق كل فرد مسئولية الشروع في تطبيق السلام بدل محاولة البحث عن الخطأ لدى الآخرين."[٢٠]

ينبغي الحرص في أثناء التواصل على توظيف أخلاقيات وقيم وضوابط، تساعد على احترام الإنسان والاقتراب منه بالقيم الإنسانية التي تخاطب فطرته، وبالوسائل الإنمائية التي تنمِّي إنسانيته. فأنْ يكون الإنسان مربِّيا أثناء الحوار، فذلك هو خلُق التواصل الإنساني، وأن يكون الإنسان منمِّياً لغيره، فذلك هو خلق التواصل الإنمائي.

إن قاعدة: الإنسان أخ للإنسان، تشكِّل مدخلاً مهمّاً لربط الأخلاق بالتواصل الإنساني والإنمائي، والتي يُشترَط لنجاحها حصول النظرة المحترمة للإنسان، والتوظيف الرحيم للاختلاف، وإطلاق حرية الاختيار والمراجعة، وتعميم العدل، وتجريم الفساد. لا يمكن أن يتمَّ التواصل من الزاوية الأخلاقية، إذا افتقد التواصل لآلياته وشروطه ومقاصده. إن حضور الأخلاق مشروط بحضور الاعتراف المتبادل بين الذات، والآخر. فالاحترام المتبادل يشكِّل اللبنة الأساسية في بناء أخلاقيات للتواصل الإنساني والإنمائي، تكون ناضجة ومثمرة. فمن غير أخلاق يتعذَّر على الإنسان أن يعيش مع غيره في انسجام وأمان وسلام؛ لأن التواصل ينجح أكثر "في ظل إسهام الخبرة الأخلاقية في إطالة عمر الحوار."[٢١] وعليه فإن هناك أسباباً للتواصل، ودعائم متينة للحوار، تتأتى من معرفة الإنسان لنفسه، ومن هنا نعتقد بوجوب توفر هذه الأخلاقيات من أجل حوار مثمر، وهي:[٢٢] التواضع، والعلم والمعرفة بالعالم، ونبذ سوء الظن، ونبذ العناد، ونبذ العنف، وحسن الإصغاء، والتسليم بحرية الآخر.

---

[٢٠] ميشو، ايف. "العنف" في: مجموعة من المفكرين، **تساؤلات الفكر المعاصر**، ترجمة: محمد سبيلا، الرباط: دار الآمان، ط١، ١٩٨٧م، ص٨٦.

[21] Littlejohn, Stephen W. *Theories of Human Communication*, London: Thomson Learning, 7th ed, 2002, p 13.

[٢٢] لمزيد التوضيح، ينظر، يوسف، أحمد. **سيميائيات التواصل وفعالية الحوار**، مرجع سابق، ص٦٤-٦٧.

ثانياً: الضمانات القرآنية للتواصل الإنساني والإنمائي مع الآخر، والحفاظ على إرثه الحضاري

لقد غاب عن فلاسفة الغرب -بوصفهم علمانيين- أن التواصل يشترط الضمان؛ وعليه فإن علامات الاحترام بوصفها ضماناً دينياً، تسهم بفاعلية منقطعة النظير في تفعيل أخلاقيات التواصل الإنساني والإنمائي مع غير المسلمين. فلا تواصل إنساني وإنمائي من غير ضمان ديني.

تتركّب الضمانات القرآنية من آليات إقناعية، تُبقي الآخر مشدوداً إلى طبيعة تصميمها، ومشدوهاً أمام مرونة أجزائها؛ ما جعل قارب الاحترام قائداً ذكياً بامتياز لركب التواصل؛ ولا غرابة في ذلك، فالحضارة الإسلامية مشهودٌ لها ببراعتها الفعلية في التسامح مع الآخر واحترامه، نظراً لما تبسطه للآخر من قيم عملية، تدفعها دفعاً إلى التوحُّد مع المغلوب والتواصل معه، ومثل هذا يشكّل عروة الاحترام الوثقى وذروتها.

تُعَدُّ الضمانات القرآنية الآتي ذكرها، مثل الاحترام وتبعاته، طريقاً مشروعاً لتفعيل آليات التواصل الإنساني والإنمائي وشروطه ومقاصده وأخلاقياته، واستثمارها في ترسيخ طبيعة احترام الإنسان، وإنجاح عملية التواصل؛ وهي ضمانات تجلّت للأمم المغلوبة من خلال الصورة الحسنة للفاتحين، قبل أن يستكشفوا حقيقتها في كتاب المسلمين.

١. تدويل احترام الإنسان:

لا شكَّ في أن طبيعة الاحترام تختلق ثمرة التفاعل. أوَ ليس الدين الإسلامي يحترم الإنسان، أيّ إنسان؟ محاكاةً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠)

تنطلق عملية احترام الإنسان من أن هذا الإنسان يشكّل رقماً معلوماً وفاعلاً في معادلة الحضارة الإنسانية. فالإخلال بهذا الرقم الفاعل هو إخلال بالتركيبة الحضارية، التي تتّخذ من الإنسان محوراً لها، وبعداً معرفياً من أبعادها. ومثل هذا التهميش لدور

الإنسان في عملية الترصيص الحضاري، هو حالة مترسِّخة في قلب الاستعمار الذي أصابه الصدأ، واتَّخذت منه الحضارة الغربية طريقاً لاستغلال الأمم المغلوبة على عقلها. فتجرَّدت هذه الحضارة من لبوسها الإنساني؛ لأنها باتت ترى في معارفها وعلومها، التي هي من صنع إنسانها وإبداعه، فيها من الكفاية ما يجعلها لا تتفاعل مع الآخرين، ولا تستفيد منهم. إن تضييق الحضارة الغربية -بفعل الاستعمار- على دائرة التفاعل والإفادة، ساعد على توسيع مساحة اللا احترام والإبادة.

٢. التوظيف الرحيم للاختلاف:

إن شرط احترام الآخر المختلِف واستثمار إنجازاته المؤتلفة، يتطلَّب معرفة الآخر وإدراك محمولاته المختلفة؛ لأن من أخلاقيات الاختلاف فهم عدم الاختلاف، ومن أخلاقيات الاختلاف إنزال الرحمة على من يُصِرُّ على عدم الاختلاف، وعلى من يُبقي على حربه مفتوحة مع المختلَف. إن السموَّ بالاختلاف مع الآخر المغلوب إلى مستوى الأخلاقيات، يُفرز آليات تعدم كل وسيلة تغري بعدم الاختلاف معه، أو عدِّ المختلَف معه كلاًّ لا يتجزَّأ من المنظومة الحضارية الغالبة. لم تكن الحضارة وحدة واحدة عبر التاريخ؛ بل الحضارة حضارات، والناسوت اختلافات، ومن هنا تستقي الأفكار محلِّيتها وعالميتها، ومنظومتها وهُويِّتها، وفي ظلِّ تباين البيئات تتباين العقليات، فتتبدَّد حضارات، وتتجدَّد حضارات أخرى؛ ما يجعل الأمم تزخر بتنوُّعها البشري، وتعدُّدها اللغوي، وتلوُّنها العقدي.

لقد حازت الحضارة الإسلامية قصب السبق في إدراك حقيقة البنية الحضارية للأمم؛ لما يمتاز به المسلمون من هدي شرعي يفتقده الآخرون. فعندما واتتها فرصة قيادة الحضارات، اهتدت الحضارة الإسلامية لهذا التوضيح القرآني، وتعاملت مع الأمم المغلوبة من منطلق قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٨-١١٩) ضَمِنَ هذا النص القرآني للأمم المغلوبة أمام غلبة الإسلام واحترامه، أن اقتلاع جذورها الحضارية أمرٌ غير وارد. لقد خلق الله هذه الأمم على تبايناتها، لتظلَّ على اختلافاتها في الهدى، ومن ثمَّ لم يكن

للفتح الإسلامي الرحيم —حضارياً– أن يرفع عصا العذاب، كما فعل أشياع القوَّة من زبانية الاستعمار.

تشكِّل رحمة الاختلاف بنية الفتح الإسلامي، التي استقرَّت في سويداء الحضارة الإسلامية، فخالطت عقلها، وذابت عناصر القوَّة والعذاب في عقل الحضارة الإسلامية ورحمته بالآخر. لقد تميَّزت هذه الحضارة بعقلها الذي يجاهد من أجل وضع القواعد من العلم والمعرفة في كلِّ أرضٍ يقصدها، وذلك من غير أن يكون الاختلاف مع المغلوب سبباً في استئصال إرثه الحضاري، أو التشكيك في منظومته التاريخية.

إن إرساء معالم الاختلاف بعلمٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢) كان رادعاً للفاتحين في عدم ممارسة القوَّة في ثني المغلوبين عن ألسنتهم ومعتقداتهم، وكان ذلك أيضاً بمثابة الضامن لهؤلاء بأن العذاب لن ينال أجسادهم وحضارتهم؛ لأن العذاب ليس من إنسانية الصفح الحضاري، وإنما هو من حيوانية السفح الاستعماري.

٣. إطلاق حرية الاختيار والمراجعة والنقد:

لقد قامت معظم الحضارات على الاستعباد والإقطاع، ولم تشذ الحضارات العريقة عن هذا المسلك، مثل: الحضارة الصينية، والمصرية، والفارسية، والرومانية، والغربية؛ لأن من الأهداف الرئيسة للأمم الغالبة، هو تحويل وجهة المغلوب إلى قبلتها الحضارية؛ فالإنسان المغلوب إنْ لم يُستعبَد من داخل هذه الحضارة، فلا شكَّ أنه سيُستبعَد من دائرتها، ويُحكَم عليه بمغادرة الحياة إلى الأبد. إن معظم الحضارات الغالبة تنتهج الطريق الذي يمكِّنها من استعمال الإنسان المغلوب لأمورها الدنيوية والمادية، وهي إنْ أرغمته على اعتناق ديانتها؛ فإن ولاء هذا الإنسان المغلوب لهذا الدين سيكون متذبذباً، لا هو مع نفسه ولا هو مع ذاك، نظراً لما صار يلمسه من استغلال وعذاب وتهميش وقمع وإقصاء.

وخلافاً لما سبق الإشارة إليه، بشَّرت الحضارة الإسلامية بحرية الاختيار للـــدين، الذي يتناسب مع المقاس الإيديولوجي لكل إنسان، شريطةَ أن لا يخرج ذلك عن دائرة الاحترام المتبادل. إن الاختيار الديني يتناقض تماماً مع هوى الردَّة الدينية. فالاختيار إذا شمل الدين الإسلامي، لا ينبغي أن يتكرَّر أكثر من مرَّة مع دين غيره؛ وإلاَّ فإن الاختيار العشوائي، سينجم عنه ما يدعو إلى عذاب النفس وتعذيبها. فهناك حدودٌ حدَّها الله لا يمكن التلاعب بها، والاختيار إزاءها.

لقد ضمِنت الحضارة الإسلامية بفتوحاتها للأمم المغلوبة حريــةَ الإبقـــاء علـــى معتقداتها، وحرية المعتقد لهذه الأمم فيه ما يحفظ لهذه الأمم إرثها الحضاري. أَلَمْ تقـــم الحضارة الإسلامية على أرضية الاختيار الديني من أول يوم ابتذرت فيه بذرة الـــدعوة الإسلامية وذلك في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ (البقـــرة:٢٥٦) فلمَ يُكرَه الناس على ركوب دين يأنفون منه، وتُستأصَل من أجلـــه حضـــارتهم؟ وفي "هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وتـــرك أمـــره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفســـه.. وهذه أخص خصائص التحرر الإنساني.. التحرر الذي تنكره على الإنسان في القـــرن العشرين مذاهب متعسفة ونظم ظالمة."[٢٣]

إن حرية الاختيار والمراجعة والنقد مضمونة حضـــارياً إذا جـــاءت في لبوســـها الإسلامي، فهي سبيل الحضارة الإسلامية لتفعيل المعاني السامية لاحترام الآخر المختلف والتفاعل معه، والحفاظ على إرثه المعرفي والفكري والفلسفي والمادي. فلـــم "يحمـــل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناقه عقيدة، ولم ينتشر بالسيف علـــى هـــذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه! إنما جاهد ليقيم نظاماً آمنـــاً يـــأمن في ظلـــه أصحاب العقائد جميعاً، ويعيشون في إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته؟"[٢٤]

[٢٣] قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة: دار الشروق، ط٢٥، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، مج١، ص٢٩١.
[٢٤] المرجع السابق، مج١، ص٢٩٥.

٤. تعميم العدل:

يشكِّل العدل أهم القيم الرئيسة في الإسلام، ولا شكَّ أن جميع الأمم دون استثناء تنشد هذه القيم الإنسانية الرحيمة، التي تعيد الإنسانية للإنسان؛ ولعلَّ العدل في المفهوم القرآني يعلو على كل مفهوم؛ وإلاَّ لماذا رحَّبت الأمم التي كانت ترزخ تحت نير الرومان والفرس بالفاتحين؟ ولماذا قبِل صرب البوسنة الحكم العثماني على غيره؟ أوَ لمْ ينعم اليهود بالعدل الإسلامي بعدما اضطهدهم المجتمع الدولي وقتذاك؟

تكمن القيمة الرحيمة للعدل، كما تجلَّت في المنظومة العقدية الإسلامية، في أنها ارتبطت بالخوف من الله، لقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ (المائدة: ٨) وهل ننتظر من أحد يخاف الله إلاَّ العدل؟ أَوَ ليس هذا الترتيب المنطقي، الذي يجمع بين المسلمين والعدل والتقوى، يدعو الآخر للاطمئنان على حياته ومعتقده وإرثه الحضاري؟

فضلاً عن ذاك، فإن العدل يشكِّل حصناً منيعاً ضِدَّ الظلم، الذي يحْجر على المواهب الفقيرة مادياً، ويقف عائقاً أمامها لتفعيل قيم المبادرة والإبداع. لقد تمكَّنت مواهب الأمم المغلوبة من التحرُّر في ظلِّ تعميم العدل الإسلامي؛ إذ أمِنوا على إرثهم، وعدُّوا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ (المائدة: ٨) بمثابة رسالة للإصلاح وليس للإفساد.

٥. تجريم الفساد:

ما من شكٍّ في أن الإسلام جاء ليُتمَّ مكارم الأخلاق، وليس للإفساد في الأرض. فعمارة الأرض إنسانياً وأخلاقياً وإنمائياً كانت غاية الفاتحين، ولم يكن جهادهم إلاَّ لاستئصال هذا الفساد؛ ولهذا عُدَّ من يدفع الجزية خارج عن دائرة من يفسد في الأرض، بعدما وضع الفاتحون لهؤلاء ضوابط وقيماً، تجعلهم أمام المسلمين في غاية الاحترام والأدب والإصلاح في الأرض. وقد زاد التزام هؤلاء الذي فضَّلوا البقاء على معتقداتهم إيماناً بهذه القيم، نظراً لما لمسوه من حرص لدى الفاتحين والمسلمين الجدد

على محاربة الفساد. فضلاً عن أن صورة الفاتحين بدت لهم أنها تختلف عمَّن سبقوهم، وممَّن عاثوا في الأرض فساداً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢)

لقد كان من الطبيعي أن تشعر الأمم المغلوبة بالأمن في غياب الفساد، وعدم القلق على ضياع إرثها الحضاري؛ لأن الفساد في حكم القرآن جريمة تستحقُّ اللعنة: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٥)

ثالثاً: أهمِّية التواصل الإنساني والإنمائي مع الآخر في تجلِّيات الحضارة الإسلامية الغالبة

لا نختلق أمراً جديداً ومن ثمَّ لا نرى شيئاً جديداً، إذا ما قلنا أن الفتح الإسلامي قد حرَّكته الرغبة في إبلاغ الرسالة الإسلامية الإنسانية من جهة، والحصول على الغنائم لتحسين الحالة الإنمائية للمسلمين، والفاتحين خاصة، من جهة أخرى، وليس كما يزعم بعض العارفون بأحوال الحضارت، أنه "لم يكن الغرض من هذه الحروب، في الأساس سوى الغزو."[٢٥] كما سنكون أكثر تواضعاً، إذا قلنا إن الحضارة الإسلامية قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرقيِّ والسؤدد، في مجالات إنسانية وإنمائية شتَّى؛ ولعلَّ الفتوحات الإسلامية، التي كانت سبباً في رِفعة المسلمين، هي نفسها التي أسهمت في رقيِّ غير المسلمين. مثل هذه الفتوحات قد استفادت منها الشعوب، التي شرح الله صدرها للإسلام، أو التي فضَّلت البقاء على دينها، مكتفيةً بدفع الجزية. وقد كانت نصائح الفتح الإسلامي، المتمثِّلة في الحفاظ على المعابد والصوامع والأديرة والبِيع، دافعاً إلى حفاظ المسلمين على إرث الدول التي شملها الفتح من: تقاليد، وعادات، وقيم، وأفكار، ولغات، وعقائد. وعليه فإن أهمية التواصل الإنساني والإنمائي في تجلِّيات

[٢٥] برّوي، إدوار. **تاريخ الحضارات العام: القرون الوسطى**، ترجمة: يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، بيروت-باريس: منشورات عويدات، ط٢، ١٩٨٦م، مج٣، ص١١٣.

الحضارة الإسلامية الغالبة، تمثَّلت في إيصال رسالة الإسلام وإبلاغها للأمم المغلوبة، وقد تمَّ ذلك من خلال احترام الإنسان، وتنمية قدراته الروحية والمادية.

تحقَّق جزء كبير من هذه الأهمية من خلال آليات التواصل: الثقافة واللغة؛ ما أضفى إلى عالمية الحضارة الإسلامية؛ فلو "كان المسلمون اقتصروا على إحلال حكم عربي أجنبي محل حكم بيزنطي وفارسي لظل انتصارهم العظيم بالتأكيد محدوداً وقصير الأجل. ولكن في اللحظة نفسها التي تخطى فيها الإسلام حدود شبه الجزير العربية، نشأ وضع حاسم تمَّت فيه الغلبة منذ ذلك الحين للعناصر العالمية على العناصر العربية والقومية. وكانت الإجابة عن مشكلة التحدي التاريخي تتلخص في إيجاد مجتمع جديد وحضارة جديدة لا يقتصران على عرب شبه الجزيرة، بل يشملان شعوباً وحضارات أخرى."[٢٦] ومن ثمَّ فإن التواصل الإنساني الإنمائي ظلَّ يشكِّل هاجساً للحضارة الإسلامية؛ لأن غياب التواصل بمنطق الغلبة يعني استمرار الحروب التي لا تفرِّق بين الإنسان والتنمية؛ ما قد ينجم عنه إدخال العالم في فوضى عسكرية مفتوحة. فالتواصل بشكليه الإنساني والإنمائي، أسهم في إخماد هذه الحروب، ذلك لأن المعاملة الإنسانية من قبل الغالب تجاه المغلوب، تقلِّل من أساليب الشر؛ أما المبادلة الإنمائية فتعزِّز من الشراكة الإنسانية.

لا نرى أن الثقافة الإسلامية شكَّلت عائقاً أمام المسلمين للتواصل مع غيرهم، بل نراها أسهمت في تغيير ثقافة الآخرين، نظراً لما تتميَّز به من معانٍ سامية، تفتقد إليها الثقافات الأخرى، مثل: الاحترام، والتسامح، والوسطية، والعدالة، والإنسانية؛ إذ تعود سرعة انتشار الإسلام وتفعيل التواصل من داخل بنيته، إلى المحمولات الإنسانية الإنمائية التي تزخر بها الثقافة الإسلامية؛ فهي ثقافة إبلاغ؛ إذ "تعدُّ الثقافة العربية الإسلامية كما نشأت في التاريخ محصلة عمليات في المثاقفة، فمن يستطيع إنكار قدرة الثقافة

---

[٢٦] شتيبات، فريتس. **الإسلام شريكاً: دراسات عن الإسلام والمسلمين**، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٤م، (عالم المعرفة: ٣٠٢)، ص١٥٤.

الإسلامية في عصورنا الوسطى على إعادة تركيب المرجعيات التي تواصلت معها؟"[٢٧] أما اللغة العربية بوصفها أداة فاعلة، فقد أسهمت في إنضاج الحوار، وإطالة عمر التواصل الإنساني والإنمائي مع المغلوب؛ لأنها ظلّت تشكّل الوجه الآخر للحضارة الإسلامية، فليس من السهولة التجاوب مع ثقافة الحضارة الغالبة من غير التعرف إلى لغاتها أو تعلمها أو إتقانها. لقد استمرت اللغة العربية غالبة؛ لأن نسقها الثقافي كان غالباً على الأنساق الثقافية الأخرى؛ ما عزّز من آليات التواصل مع الآخر. ففي حالة اللغة يكون "النسق هو الضامن لحماية بنيتها وثباتها، بل يعد بالنسبة للمَلَكة اللسانية عاملاً حيوياً في العمليات التواصلية."[٢٨] ومثل هذا التراص النسقي الحضاري للغة والثقافة، أدّى إلى "انتشار عالمي للغة العربية، فاعتمدها الأدباء والشعراء والفلاسفة والأطبَّاء وسائر المبدعين في العلوم الوضعية لغة تعبير، لا فرق في ذلك بين عربي وإيراني وتركي وسندي ورومي. والأسماء في هذه الحقول كثيرة ومعروفة. ولأعلام إيران بينها حصَّة من الأسد."[٢٩]

من جهة أخرى، غيَّرت عظمة الفتح الإسلامي نظرة الآخرين غير الصحيحة للإسلام، ومهَّدت جسراً لأخلاقيات التواصل الإنساني والإنمائي مع الآخر، نظراً لما أولاه الفاتحون من احترام لقيم الآخرين، وعدِّها قيماً جديرة بالجلوس إلى مائدة الحوار، والإصغاء لمنطوقها، والتواضع لخطابها. فالعناد والعنف لا يجلبان التواصل، بقدر ما يعمِّقان من سوء الظن. لقد تجسَّدت أخلاقيات التواصل في شكل معاملةٍ حسنة، أخذت بألباب الشعوب التي أسلمت، أو التي حافظت على حياتها بدفع ضريبة الجزية؛ إذْ تمثَّلت هذه العظمة في إعادة الاعتبار للإنسان المغلوب، لا سيما الإنسان الذي كان مغلوباً في مجتمعه قبل الفتح الإسلامي، الذي كثيراً ما آلمه الرِّق، والاستعباد، والتمييز،

---

[٢٧] كمال، عبد اللطيف. **أسئلة النهضة العربية: التاريخ– الحداثة– التواصل**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٤٩.

[٢٨] يوسف، أحمد. **سيميائيات التواصل وفعالية الحوار**، مرجع سابق، ص٥٧.

[٢٩] الكك، فكتور. "اللغة العربية في إيران ماضياً وحاضراً ومستقبلاً"، في: **مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية**، نصوص أعمال الندوة التي نظَّمها المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، ٦–٨ نوفمبر ٢٠٠٠م، الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ٢٠٠١م، ص١٢٦.

والتهميش، وكل ما تعلَّق باستبعاد فضائل الحرية؛ وللمثال، ومثال ذلك الثقافتان الهندوسية والبوذية في عالم الملايو القديم؛ إذ افتقرتا إلى مقاصد التواصل الإنساني والإنمائي، ذلك لأن الثقافة الهندوسية ثقافة قمع، والثقافة البوذية ثقافة انعزال. لقد أسهمت أخلاق المسلمين التجار في تغيير هذه الأوضاع المتخلفة، وذلك بإدخال عناصر إنسانية وعالمية على هذه الثقافات الملايوية القديمة، وأمور فنية قد أتى بها الفاتحون، فبلَّلوا بإنسانيتها جفاف قلوب الملايو وعقولهم، مثل النظرة للإنسان نظرةً كريمةً لمقامه الكريم، وعدِّه القيمة الحضارية الأولى لنجاح استثمارات الفتح الإسلامي، واللَبنة المحكمة التي يقوم عليها بناء الحضارة الإسلامية، والتي أمكنها أن تمتدَّ بأساسات الثقافة الملايوية الجديدة في عمق العالمية والإنسانية؛ إذ نلاحظ ثمار ذلك في مجالات العلوم والتكنولوجيا التي برع فيها الملايويون.[٣٠]

إن الفارق الجوهري بين الفتح والاستعمار، هو أن الفاتحين يتواصلون مع الآخر، فيفيدونه إنسانياً وإنمائياً؛ أما الاستعمار فلا يقيم أدنى اعتبار إنساني للآخر، ويسعى جاهداً إلى تشويه التنمية، أو إبقائها سجينة التبعية. لقد قامت الحضارة الإسلامية بفتحها الإسلامي على دينامية وحركية التواصل الإنساني والإنمائي مع الحضارات المغلوبة؛ أما الحضارة الغربية باستعمارها الأوروبي والأمريكي، فقد اكتفت بعملية الاتصال في شكله المادي مع المستعمَر؛ بل أفسدته أخلاقياً وإنسانياً وإنمائياً وحرب الأفيون الشهيرة بين الصين وبريطانيا مثال على هذا التواصل، ودافعاً لنهب الثروات. وإذا لم يكن هناك تباين بين التواصل والاتصال، لماذا نلفي "الوجه الصادق في الفكر المعاصر يتطلَّع إلى تحويل الاتصال إلى تواصل يتجسَّد فيه التفاعل الاجتماعي بين الأفراد والمجتمعات، وتتحقَّق فيه الشراكة المتكافئة بناء على علاقات متينة وروابط سليمة دون أن نتنكَّر لسُنّة التدافع طلباً للوسطية والاعتدال؟"[٣١]

---

[٣٠] انظر: محمد، محاضير. **الإسلام والأمة الإسلامية: خطب وكلمات مختارة**، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٢٦٨.

[٣١] يوسف، أحمد. **سيميائيات التواصل وفعالية الحوار**، مرجع سابق، ص١١.

تكشف لنا المقارنة بين الفتح والاستعمار عن أشياء عميقة داخل الحضارات، التي حكمت الأمم وطوَّعتها لإرادها. إن قيمة الفتح الإسلامي تتجلَّى في تواصله مع الآخر، وحفاظه على مكتسبات حضارته؛ بينما يكمن خطل الاستعمار الغربي في تدمير بعض هذه الإنجازات إلى الأبد. فكمْ من فتح إسلامي، إنْ لم يكن جلُّه، قد حافظ على مقوِّمات الأمم ومكتسباها، وما اشتملت عليه من إرث معرفي وعلمي ومادي؛ وكم من استعمار غربي، إنْ لم يكن كلُّه، قد سعى في الأرض فساداً، فلم يترك شيئاً إلاَّ وأتى على بنيانه من القواعد. إن الفارق بين الفتح الإسلامي والاستعمار الغربي، أن الأول أقبل على الأمم بروحه، والثاني أعرض عنها. فأوربا الاستعمارية، "حين اكتشفت العالم الإسلامي لم تؤته روحها، أي إنها لم تؤته حضارها كلها، وإنما اقتصرت فيما اصطحبت من الأدوات على ما يسهل للمستعمر الحصول على رفاهيته."[٣٢]

قد لا تبرز قيمة الحضارة الإسلامية في إسلاميتها وتسامحها فحسب، وهذا شأن يدرك المسلمون والعاقلون قيمتَه؛ ولكن قيمة الحضارة الإسلامية تتجلَّى في إنسانيتها وعالميتها؛ إذْ يشعر بهما كل من كان له حظٌّ من الإسلام. ولعلَّ الحضارة التي تتَّخذ من الإنسان شعاراً للتواصل مع الإنسان، هي التي تجذب إليها كل من ألقى السمع إلى هذا التواصل الإنساني والإنمائي بقلب إنسان. لقد انبرت الحضارة الإسلامية تخاطب الإنسان بإنسانيته؛ ما جعل هذه الإنسانية بمثابة الجسر المحكم الأبعاد بين الإسلام، والإنسان؛ ومن ثمَّ أَلم يولد الإنسان على الفطرة؟ لقد استمرَّ الحال طوال المسيرة التاريخية الناجحة للحضارة الإسلامية في تواصلها مع الأمم، والتي ما زال عقلاء هذه الأمم يحتفظون لها ببعض الجميل الحضاري لحدِّ الآن؛ لا سيما وأن "الحضارة اليوم هي حضارة اتصال أكثر منها حضارة تواصل لكونها تنزع نزوعاً وحشياً وبربرياً في بعض الأحيان إلى التمركز حول الذات بما يتيحه لها التطور التقني الكبير، ولهذا انكبَّت

[٣٢] ابن نبي، مالك. **وجهة العالم الإسلامي**، بيروت: دار الفكر المعاصر، طبعة جديدة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٦٣.

فلسفة ديريدا على نقد هذا النـــزوع اللاإنساني الذي يلغي الآخر أو يحقره أو يستعبده. ولماذا يُستعبد الناس وقد ولدهم أمهاتهم أحراراً؟."[٣٣]

لقد أسهمت هذه القاعدة: من يَحترِم يُحترَم، التي تشكِّل أحـــد أهـــم شـــروط التواصل الإنساني والإنمائي، في إطالة عمر التواصل بين الحضارة الإســـلامية القائـــدة، والحضارات الأخرى التابعة. فمثل هذه القاعدة لم تسهم في حفاظ الحضارة الإسلامية على مكتسبات الحضارات الأخرى فحسب، بل حافظت على اســـتمرار الحضـــارة الإسلامية نفسها في تحقيق إنجازات عظمى، شهد لها الحامد والجاحد، وأثـــنى علـــى روحها الإنساني كل إنسان عاقل، وهذا نظراً لما أولته تجاه الآخر من تساهل وتسامح، أسهما في تفعيل الاحترام؛ لأن الآخر الذي يجهل سماحة الإسلام، لا يشعر بهـــا إلاَّ إذا جاءت في سياق الاحترام؛ فكل إنسان يختزن بداخله وحشاً، هو على أهب الاستعداد للافتراس؛ ولكن النغمة السحرية للاحترام هي التي تعيد الإنسان ســـيرته الأولى. أوَ لم يشرَّع الرسول صلى الله عليه وسلَّم لهذا التساهل والتجاوز والاحترام، بقوله: "اسمـــح يُسْمَح لك"؟[٣٤] وبناءً عليه، فإن الحضارة الإسلامية، وفي ظلِّ التواصل الإنمـــائي مـــع الآخر، عرفت كيف تحافظ على إرثه الإنساني، فكل ما هو إسلامي هو إنساني؛ فمَن يَحترِم الإسلام، يُحترَم بوصفه إنساناً.

لقذ ظلَّت الحضارة الإسلامية تحاجِج الأمم الأخرى بلغة الحضارة ومنطقهـــا. و لم تندفع لاكتساح الحضارات وتمزيق أطرافها، بل اتَّخذت من الانتشـــار الإنســـاني في أوساط الأمم، طريقاً للتعامل مع القيم العصيِّة على الإيمان. وقد تجلَّى هـــذا الأمـــر في احترام الحضارة الإسلامية للإرث البشري، و لم يكن لهذه الحضارة الإنسانية أن تشتَّط؛

[٣٣] يوسف، أحمد. **سيميائيات التواصل وفعالية الحوار**، مرجع سابق، ص١١.

[٣٤] عن أبي جريج قال: قلت لعطاء: أني رأيت إنساناً منكشفاً مكشوفاً على الحوض يغرف بيده على فرجه؟ قـــال: فتوضأ، فليس عليك إن الدين سمح، قد كان النبي صلى الله عليه وسلَّم يقول "اسمحوا يسمح لكم". رواه الإمام أحمد ١/٢٤٨، (٢٢٣٣)، انظر:

- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخـــرون، بـــيروت: مؤسســـة الرســـالة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٤، ص١٠٣.

حتى ولو اصطدم ذلك مع ما تنشده هذه الحضارة من روحانيات وأخلاقيات. فمثل هذه وتلك، هي بداخل الإنسان الذي تحكمه قيم روحية، وليس بما هو غير إنساني تحكمه قيم مادية. فسمرقند التي أصبحت فيما بعد موطن الحضارة الإسلامية، كان لها قصَّة عجيبة مع الفاتحين، الذين أُرغموا قضائياً للخروج منها؛ لأن المسلمين دخلوها عنوة، ولما حكم القاضي بالانسحاب الفوري لجيش الفاتحين من سمرقند، ما كان من أهل سمرقند إلاَّ الدخول في الإسلام طواعية، لما لمسوه من رغبة القضاء الإسلامي في الحفاظ على أرضهم وحضارتهم من فتحٍ عَدُّوه غدراً. وإذا "رجعنا للعهود المنوعة والمحالفات التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلَّم رأينا فيها أمراً واحداً مطرداً هو: قصد نشر دعوة الإسلام، والوصول بهذه الدعوة إلى الظهور والانتشار بالوسائل السلمية."[٣٥]

إن الوصول إلى تغيير القيم المادية وإعادة النظر في شرعيتها من الوجود، يكون بالتغلغل في أعماق الإنسان، وتغيير ما بداخله من قيم روحية. وهذا كله يكون بترسيخ آليات التواصل والحوار بين الإسلام، والإنسان، وإذا ما أسلم المغلوب فله ما يشاء تجاه إرثه المادي والروحي. فلم تكن للحضارة الإسلامية أن تملي شروطها على الأمم فيما يتعلَّق بإنجازاتها التاريخية؛ بل نلفيها تمنح -بفضل التواصل الإنساني والإنمائي- الحرية للإنسان المغلوب، في استحداث آليات للمراجعة والنقد وإعادة البناء من داخل معتقده، دون إكراهه على ترك دينه؛ والذي "يؤكد رعاية الإسلام لحرية العقيدة ونفي الإكراه فيه، أن معظم أئمة التفسير قالوا إن سبب نزول آية (لاإكراه في الدين) أنه كان لدى بني النضير من يهود المدينة أولاد من أبناء الصحابة ربوهم وهوّدهم، فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلَّم بإجلاء بني النضير لتوالي إيذائهم للمسلمين، أراد المسلمون أن يأخذوا أبناءهم ويكرهوهم على الإسلام، فنزلت الآية (لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي). فقال النبي عليه السلام (قد خير الله

[٣٥] طبَّارة، عبد الفتاح عفيف. **روح الدين الإسلامي**، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣٠، ١٩٩٥م، ص٤١٤.

أصحابكم فإن اختاروهم فهم منهم وإن اختاروكم فهم منكم). فهذا دليل على رد الإسلام للإكره الديني ولو كان ذلك في سبيل اعتناق عقيدته."[٣٦]

لم يقتصر الأمر في المناقشات الدينية وتفعيل الحوار على غير المسلمين؛ بل تعداه إلى المسلمين المخالفين لإجماع الأمة، وحدث ذلك بتوظيف أخلاقيات التواصل، فكان التسليم بحرية الآخر، يعني التسليم بالمحاجة، والإصغاء بحجة الإقناع، فقد "خرج قوم من الخوارج على علي رضي الله عنه وخالفوا الأمة في اعتقادهم، وقد رأى الخليفة عمر بن عبد العزيز في عهده حقهم في أن يكون لهم اقتناعهم ولم ينس واجبه في احترام هذا الحق. كما رأى واجبه في منحهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع ما دام نشاطهم يقتصر على النقاش والمناظرة. ولا يتحوَّل إلى عمل إرهابي، بقصد سفك دماء مخاليفهم في العقيدة. فما كادت إحدى هذه الفرق تتمرَّد في أول خلافته حتى أرسل إلى زعيمها يقول: أما بعد فقد بلغني أنك خرجت غضباً لله ورسوله، ولستَ أولى بذلك مني. فهلم أناظرك يكون الحق معنا تدخل فيه، وإن يكن الحق معك نراجع أنفسنا وننظر في أمرنا. فلما قرأ الزعيم الثائر هذا الكتاب ألقى سلاحه وأرسل مبعوثيه إلى الخليفة لإجراء حوار حول ما بينهما من قضايا، وكانت عاقبة هذا الحوار أن ألقت الفرقة المتمردة سلاحها وعادت إلى الحق. وبذلك انتصر الخليفة المسلم لحرية الإقناع وحرية المناقشات الدينية في الأمور الكبرى."[٣٧] لقد وظَّف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مفهوم صلة الرحم، بهدف إنجاح عملية التواصل وتفعيلها على مستوى الحوار والإنصات والإقناع. فكلمة صلة تختزن بداخلها ذاتاً تتواصل مع ذاتها، وذلك من منطلق الرغبة في تحقيق المزيد من الإنسانية، في مجتمع مسلم، تُعَدُّ أنسنة الإنسان وتنميته من انشغالاته الكبرى. فلم يكن هذا الحوار يستهدف تحقيق أطماع سياسية زائلة، قد تُبقي على التواصل عند حافة الاتصال، فلا يكاد يبرحها حتى يتهاوى. إن الخلاف مع الخوارج كان أقرب إلى الخلاف الذي يقلقه المصير الإنمائي للإنسان؛ فهو

---

[٣٦] العيلي، عبد الحكيم حسن. **الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام: دراسة مقارنة**، القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٣م، ص٣٨٦-٣٨٧.

[٣٧] المرجع السابق، ص٣٩٥-٣٩٦.

قلق عاطفي وحماسي قبل غيره. ولهذا فإن بسط يد الحوار من قبل الخليفة، قد دغدغ مشاعر الخوارج، وكانت نتيجته أن ألقى زعيم الخوارج سلاحه، وجلس يصغي على مائدة الحوار. فعندما يكون الكبير متواضعاً ومحترماً وعاقلاً ومقنعاً ورحيماً، لا شكَّ أن اختلافات الصغار تجاهاته ستذوب وتتلاشى.

لقد أدركت الحضارة الإسلامية أن الحضارات السامية هي التي تغترف من معين الدين والأخلاق، فإذا ذهبت أخلاقها ذهبت، وإذا تخلَّت عن تفعيل فعل الدين في حياتها اختلَّ توازنها، واعتلَّ وجودها. وعليه فإن الحضارة الإسلامية كانت أكثر الحضارات مسؤولية تجاه الأمم المغلوبة؛ إذِ اتَّخذ رجالاتها من هذا الشعار العملي طريقاً لتحقيق مقاصد التواصل وتفعيلها: ما الفائدة من وجودنا إنْ لم نُفِد بوجودنا؟ مثل هذا التساؤل لم يأتِ عبثاً، إذا ما ألفينا هذا التساؤل القلِق قد فرضته طبيعة المساءَلة، التي يَمتَحُ منها الفعل الحضاري الإسلامي أخلاقيات الاستمرار في تدويل الإنجازات على الأمم المغلوبة.

لقد تأسَّست لبنة الحضارة الإسلامية على قاعدة قرآنية حاسمة وصارمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) وهي لبنة تشكِّل أحد أهم شروط التواصل الإنساني والإنمائي مع الذات والآخر معاً. فلو أن هذا التغيير المطلوب لم يتحقَّق، ما كان للحضارة الإسلامية، أن تبلغ ما بلغته من سلطان علمي ومعرفي وفكري ومادي على الحضارات العاتية؛ إذْ يكمن سرُّ نجاح الحضارة الإسلامية في أن الفاتحين قد غيَّروا ما بداخلهم، قبل أن يغيِّروا ما بداخل الحضارات الأخرى، "فصحَّحوا قبل كل شيء مفاهيمهم المغلوطة عن أنفسهم وهوياتهم، ثم انتقلوا بعد ذلك فصحَّحوا أغلاطهم عن تصورهم لمعنى الحياة التي يتمتعون بها، ثم تعرَّفوا على حقيقة المكوِّنات التي تطوف من حولهم، وتنَّبهوا إلى العلاقة القائمة بينهم وبينها."[٣٨]

بفعل تواصل الذات مع ذاتها، وتغيير ما بداخلها رغبةً في تغيير ما بداخل الآخر من فساد حضاري، أنارت الفتوحات الإسلامية درب الظلام البشري في زمن الخليفة

[٣٨] البوطي، محمد سعيد رمضان. **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط٧، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٧٤.

الأول أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه. وقد ابتدأت الفتوحات الإسلامية، التي أعقبت الفتوحات النبوية، بقتال أهل الردَّة، ثمَّ تخلَّلتها أهم الفتوحات وأجلّها، مثل: فتوح الشام، وفارس، ومصر، وإفريقيا، والأندلس، والقسطنطينية، وغيرها؛ حتى مضى أمرها وانقضى مع موت الخلافة العثمانية في منتصف العشرينيات من القرن العشرين. وقد مرَّت هذه المسيرة الإنسانية للفتح الإسلامي بمراحل عدَّة؛ فمنها ما تمَّ فتحه بكلمة التوحيد، ومنها من اختار لنفسه الجزية، وآخر لم يكن أمام المسلمين إلاَّ الدخول معه في حرب، غالباً ما كان المسلمون فيها أصحاب الصبر والنصر. وعلى امتداد هذه المراحل كان الفاتحون إلى البناء أقرب منهم إلى الهدم والتشويه، إلى الحفاظ على الإرث الحضاري للمغلوبين أقرب منه إلى التخريب والإفساد.

لم يكن الفاتحون يستهدفون الهدم، ولم تقم الحضارة الإسلامية على أنقاض ثقافات المغلوبين؛ وإلاَّ ما الفائدة من فتح إسبانية والبربر في المغرب، على الرغم من ضعف ثقافتهم؟ لم تضع الحضارة الإسلامية من مسألة توفر العقل من عدمه، شرطاً للتواصل مع الأمم المغلوبة؛ وإنما استهدفت هداية هذه الأمم بأمور غيبية. فلا يوجد مثل هذه الشروط العقلانية المعاقة لتفعيل التواصل؛ إلاَّ لدى الأمم التي تجرَّدت من لبوسها الديني، ولهذا نلفي هبرماس يتَّخذ من العقلانية شرطاً لحصول التواصل؛ فكل "ما هو عقلي عند هبرماس، هو قابل للمناقشة، لأن كل دلالة مقترحة من طرف شخص ما تشكِّل قضية معنى، وكل قضية معنى يمكن مناقشتها في إطار مقولة الصلاحية."[٣٩] فلم تشترط الحضارة الإسلامية الغالبة البعد الإنمائي في ثقافة الأمم المغلوبة للتواصل معها؛ بل جعلت للبعد الإنساني أسبقية على البعد الإنمائي؛ لأن الانتشار الحضاري للإسلام سلك طريقاً إنسانياً ودعوياً وإنمائياً. لقد تشرَّبت الحضارة الإسلامية لَبَنَها في دولة عقدية، ومن "طبيعة الدولة الإسلامية أنها دولة فكرية عقدية يعود أصل نشأتها إلى الرغبة في إبلاغ رسالة الإسلام للأمم والشعوب والدعوة إليه، وفي تطبيق الشريعة الإسلامية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

[٣٩] أفاية، محمد نور الدين. **الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة**، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

(الحج:٤١)"[٤٠] فضلاً عن ذلك، فإن الدولة الإسلامية قد استهدفت نشر تعاليم الإسلام تحت لواء الفتوحات الإسلامية، ومنطقياً أن تتوخَّى الحضارة الإسلامية محاكاة هذه التعاليم السامية، التي تدعو إلى العناية بالآخر ورعايته، ولا تلغي ما هو غير عقلاني من دائرة الحوار والتواصل.

تجلَّت هذه العناية أول ما تجلَّت في تواصل الحضارة الإسلامية مع غيرها إنسانياً وإنمائياً، وتجلَّت أيضاً في إسهام الحضارة الإسلامية في إنعاش الحضارات المغلوبة، وإعادتها إلى دورة الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فقد "فتح الإسلام فارس والروم ومصر وأمصار أخرى كثيرة، كانت أقدم مراكز الحضارة في العالم بأسره، ولكنها كانت في حالة ركود ثقافي، لسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والدينية، ولقد استطاع الإسلام أن يصحِّح مسار تلك الشعوب، وأن يفتح لها آفاقاً جديدة، بعد أن طال بها الركود، فانطلقوا في صناعة العمران من جديد، ونهضوا بهمة مختلفة، وعزيمة فتية، وتعاليم فطرية سليمة."[٤١] فلم تحمل الفتوحات الإسلامية عصا العقاب، ولم تكن الجزية شكلاً من أشكال العقاب، بل كان الغرض منها هو بسط الحماية على أرض مَن هم في ذمَّة المسلمين، ولم يكن للسيف أن يفعل فعلته؛ إلاَّ لأمر أراده الله، بل كان تفعيل مقاصد التواصل على الأمم المغلوبة هاجس الفاتحين، فاستطاعوا بحكمة منقطعة النظير أن يمزجوا بين البعدين الإنساني والإنمائي، ويتَّخذوا من الأخلاق طريقاً للانتشار الحضاري؛ ما جعل شروط التواصل ومقاصده وأخلاقياته، تغوص عميقاً في ثقافة الأمم التي كانت مغلوبة وقتذاك.

لماذا يتغنَّ المستشرقون المنصفون بهذا التواصل الإنساني والإنمائي، إن لم تكن له أهمية في تراثهم الغربي؟ وإلاَّ كيف نفسِّر هذا القول الحسن لهونكة: " يخيَّل إليَّ أن الوقت قد حان للتحدث عن شعب قد أثَّر بقوَّة على مجرى الأحداث العالمية، ويدين له

---

[٤٠] مفتي، محمد أحمد. **أركان وضمانات الحكم الإسلامي**، بيروت: مؤسسة الريَّان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٣٣.

[٤١] الواعي، توفيق يوسف. **الحضارة الإسلامية مقارنةً بالحضارة الغربية**، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦م، ص٣٧١-٣٧٢.

الغرب، كما تدين له الإنسانية كافة بالشيء الكثير. وعلى الرغم من ذلك فإن من يتصفح مئة كتاب تاريخي، لا يجد اسماً لذلك الشعب في ثمانية وتسعين منها؟"[٤٢]

إن العلوم والمعارف التي أبدعها جهابذة الحضارة الإسلامية، لم تلغِ إبداعات المختلَف معهم دينياً، وإنما تماهت معها واستفادت منها، على مستوى البحث والإشادة والنقد. لقد "حفظت الحضارة الإسلامية لحضارات العالم الحديث ما وصلت إليه حضارة الأقدمين، كما أضافت إليها ما ابتكرته، وتوصَّلت إليه في مختلف العلوم والفنون، ولولا هذه الفترة الزاهرة في تاريخ الحضارة والفكر الإنساني، وعناية العرب بالحضارات القديمة السابقة لضاعت معالم تلك الحضارات، ولما وصلت حضارات العالم الحديث إلى ما وصلت إليه."[٤٣]

خاتمة

لقد استعرضنا في هذا البحث أخلاقيات التواصل الإنساني والإنمائي، وبسطنا القول في ذلك على مستوى الآليات، والشروط والمقاصد، والأخلاق، وتبيَّن لنا أن فعل التواصل الإنساني والإنمائي مع الآخر مهَّد طريقاً للتفاعل والتجانس، وتجلَّت أهميته في أن الحضارة الإسلامية، قد صمَّمت أنموذجاً حضارياً فريداً في التواصل الإنساني والإنمائي؛ لأنها اشترطت للتواصل ضمان، اطمأنَّت له الأمم المغلوبة، وحقَّقت لذاتها انتصاراً مادياً ومعنوياً، تمثَّل في الحفاظ على إرثها التاريخي والحضاري. فمن هذه الأمم من تماهى مع هذا التواصل، واستدفأ في أحضانه، مثل: الملايويين، والإيغور في الصين، والبوسنة في أوروبا، وأقليات كبرى في أنحاء العالم. وهناك من تعامل مع هذا التواصل من باب جلب المصالح ودرء المصائب، وهو في الوقت نفسه يتربَّص الدوائر، ويكافئ هذا الجميل، بتوسيع دائرته الاستعمارية في العالم العربي والإسلامي، وتحويل التواصل إلى اتصال، يستهدف من ورائه تحقيق منافع إنمائية؛ بينما يستبعد الإصغاء إنسانياً لهذه

[٤٢] هونكة، زيغريد. **شمس العرب تسطع على الغرب**، مرجع سابق، ص١١.

[٤٣] شلبي، أبو زيد. **تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإنساني**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط ١٠، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٣٧٨.

الأمم المغلوبة، بحجة أنها قاصرة عقلياً، ولا داعي لمحاورتها والتواصل معها بمنطق هابرماس. وعليه، يُفترَض من الحضارة الغالبة حالياً أن تتمثَّل الأنموذج الحضاري الإسلامي في التواصل الإنساني والإنمائي، وتستفيد من شروطه وأخلاقياته ومقاصده في تعاملها مع الحضارات المغلوبة، وتعيد النظر في آلياتها العائمة في مصطلحات سياسية مجانية وغامضة، لم تجن الأمم المغلوبة من ورائها إلاَّ التخلف والإرهاب والعنف. لا سيما وأن الحضارة الإسلامية قد حقَّقت شروط التواصل الإنساني والإنمائي مع غيرها بامتياز. وهذا التواصل ما كان له أن يؤتي أكلَه، لولا احترام الإنسان، ورحمة الاختلاف، وإطلاق الحرِّيات المسؤولة، وتعميم العدل، وتجريم الفساد، إلى جانب تقوى الثقافة العالية، التي تزيَّت بها الحضارة الإسلامية.

إن ما نراه من مآسٍ اقتصادية وسياسية واجتماعية في الأمم المغلوية في العصر الحديث، هو ناجم عن غياب التواصل الإنساني والإنمائي داخل هذه الأمم وخارجها، مثل غياب النظرة الإنمائية للإنسان العربي والمسلم في الداخل؛ لأن احترام الإنسان إنمائياً من قبل حكوماته يكاد يكاد مفقوداً في ظلٍّ تشويه التنمية بتبعيتها قسراً للخارج. هذا إلى جانب غياب النظرة الإنسانية للإنماء من قبل الغرب، فكلما شرع العالم العربي والإسلامي في تغيير مساره الإنمائي في الاتجاه الإنساني الصحيح، تدخَّل الغرب لإعاقته بأساليب غير إنسانية، مثل: زرع الديكتاتورية، وقمع الحلول الديموقراطية ذات الصبغة الوطنية والإسلامية والإنسانية. فالتواصل الإنساني والإنمائي ذو طبيعة مزدوجة تشترط الأخذ والعطاء؛ إلاَّ أن الغرب يتواصل مع اليابان والصين للاستفادة إنمائياً، ويتواصل مع العالم العربي والإسلامي للحصول على النفط بأبخس الأثمان، وهو تواصل أناني، يأخذ إنمائياً ولا يعطي إنسانياً.

لا غرو أن تكون الضمانات القرآنية التي أشرنا إليها آنفاً، التي حقَّقت للحضارة الإسلامية ذاتها، هي نفسها التي تَعِدُ بإطلاق روح جديدة، تبشِّر بدورة ثانية موعودة لهذه الحضارة المفقودة. لا خلاف في أن العرب والمسلمين قد حقَّقوا انتصارات تاريخية؛ ولكن هل استفاد منها الإنسان العربي والمسلم؟ هل حقَّقت لهذا الإنسان ذاته؟

لا نعتقد أن الإنسان العربي والمسلم قد استفاد من هذه الانتصارات، بينما هو سجين القمع والردع. إن استثمار احترام الإنسان هو الطريق الأمثل لإنتاج الذات؛ وتالياً "كل نصر لا يشمل تحقيق الذات هو فقط ظاهري وبائد. إن أفضل استثمار يمكن للمرء أن يقوم به يكون في التطور الروحي لأنه لا يضيع أبداً."[٤٤] والحضارة الإسلامية لا شكَّ أنها قادرة على استكمال مسيرتها الإنسانية والإنمائية؛ لأن مخزون تطوُّرها الروحي لم ينضب معينه بعد، شريطةَ إعادة الاعتبار للإنسان العربي والمسلم. فاستثمار احترام الإنسان وإنضاجه برعاية دولة إنمائية ذكِّية، يمهِّد أرضية مناسبة لقطف ثمرة التزاوج الناضج بين التطوُّر المادي، والتطوُّر الروحي. وعليه "ما الدور الذي يمكن للإيمان أن يقوم به في القرن الواحد والعشرين، ليكون ذا وجه إنساني إلهي؟."[٤٥]

لقد استثمرت الحضارة الإسلامية إنجازات الحضارات المغلوبة، فاستمرَّت في عطائها؛ ولو لم تحافظ -وهدَّمت- ما كان أن يكون لها هذا الصدى التاريخي الكبير؛ بينما هي حالياً قد بلغت الحضيض. إن المسلمين المرتخين جغرافياً وثقافياً ومعرفياً وعلمياً، هم أصلاب في التاريخ بأخلاقهم وسماحتهم وحسن فعل تواصلهم الإنساني والإنمائي مع أنفسهم وغيرهم. ومن يفعِّل هذه القيم الإنسانية، لا شكَّ أنه سيسترجع مجده؛ أَوَ ليس التاريخ يعيد نفسه؟!

---

[٤٤] بيتر، جون. **أخلاق للقرن الواحد والعشرين**، ترجمة: قسم الترجمة بدار الفتح، الشارقة: دار الفتح، ٢٠٠٢م، ص٤٧٤.

[٤٥] جارودي، روجيه. **كيف نصنع المستقبل؟**، ترجمة وتقديم: منى طلبة وأنور مغيث، القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٦١.